جحيم عم نعيم
رواية قصيرة

رواية قصيرة

جحيم عم نعيم

ريمون

المؤلف: ريمون بحر

اسم الكتاب: جحيم عم نعيم

الإدارة الفنية وتصميم الغلاف: مينا مية

الإخراج الداخلي: مودي ماهر

المراجعة والتدقيق اللغوي: كريستين صموئيل

سنة النشر: ٢٠٢٠

إهداء إلى أبي وأمي،

جحيم
عم
نعيم

(١)

فى يوم مثل هذا منذ عدة شهور تعرفت على رجل غيّر حياتي.

دخلت مكتبته، وأنا هارب من أوقات العمل الرسمية، وأتحدث فى هاتفى النقال مع مديري في الصحيفة، كنت أحاول أن أقنعه بنشر مقالي الجديد شارحا له أسبابي.

عندما انتهيت من المكالمة، وجدت الرجل العجوز الواقف أمامى يبتسم لي، سألنى إن كنت أحتاج إلى المساعدة، فقلت له: "أريد كتابًا جديدًا للقراءة".

اختار لي الرجل كتابًا لا أعرفه، وفتح لى صفحة فيه وقال: "اقرأ هذا الجزء قبل أن تقرر أمر الكتاب". ورغم غرابة الطلب قرأت، كان كلامًا عن الإهمال فى مرحلة الطفولة وكيف يعيش الإنسان حياته كلها محاولاً ملأها باهتمام الناس حتى يشعر بالقيمة، كلامًا غريبًا، ولكنه حرك مشاعري، كأنه اصطدم بحقيقتي أو بشيء كهذا. سألتُ الرجل العجوز: "لماذا اخترت لي هذا الكتاب؟"

فأجابنى بسؤال آخر: "ألم يحن موعد فصل جديد في حياتك؟!"

عزيزي القارئ، اليوم هو فرصة سعيدة لن تتكرر، سأعرفك على كنز من كنوز مصر، هذا الكنز ليس مالاً أو ذهبًا بل شخصًا، وأي شخص، إنه العم نعيم. العم نعيم كان يقطن في مكتبة ضيقة تحت الأرض في باب

اللوق. لا يعرفه الكثيرون ولكن كل من عرفوه أحبوه، والأهم من ذلك هو أن حياتهم تغيرت تمامًا.

تعرفت أنا أيضًا عليه عن طريق صدفة بحتة قادتني إلى مكتبته ولم أفوت الفرصة عندما لاحظت حكمته، بصيرته، قدرته على تشخيص الاحتياج ومهارته في الإرشاد. عرفت أني أقف أمام أحد أهم كنوز مصر. نحن بحاجة إلى هذا الرجل، نحتاج إلى كل حرف يخرج من فمه، نحتاج إلى أن يخالطه الملايين، ونملأ بصوته القنوات من تلفاز وراديو، ونرسم أقواله على أسوار المدارس والمنازل، وأن نبني مجلسًا رحبًا يستطيع جميع الناس أن تلتقيه فيه وتُرْوَى في مجلسه من الحكمة الخارجة من شفتيه.

ذهبت إليه لأزوره اليوم وحمدًا لله أن وجدته. حكيت معه عن بعض الأخبار الجديدة في حياتي وقلت له ألا يترك المكتبة حتى أعود إليه بخبر سعيد. تركته هذه المرة وعقلي ملىء بالأفكار والخطط التي تُعجِّل من نشر خبر وجوده وفي الوقت نفسه نتمكن من الاستفادة من حكمته قبل أن يداهمنا الوقت ويموت، فالرجل شيخ عجوز. أين كنت طوال تلك السنين يا عم نعيم؟ وماذا كنت تفعل؟

جمعت مجموعة من الأصدقاء المثقفين الذين سبق وقابلوا عم نعيم وعرفوه حق المعرفة. جمعتهم في مكتبي في مبنى الصحيفة وجمعنا حُبنا وإيماننا بأهمية وصول العم نعيم للعالم أجمع.

بدأنا نفكر من أين نبدأ؟ يبدو أن الخطوة الأسهل والأوضح هى ظهوره على التلفاز، فالتلفاز يشاهده الملايين يوميًا، ويدخل جميع البيوت دون مقدمات. اقترحت نُهى أن نستغل الإنترنت وننشىء له قناة على "اليوتيوب" يظهر عليها "لايف" يوميًا، قاطعها دكتور شكري: "هكذا سنُعجل من أجل الرجل العجوز، لن يتحمل الظهور والجلوس اليومي

أمـام الكاميـرات والشاشـات" ضاربًـا برأيـه الصائـب فكرتـي أنـا ونُهـى. مـاذا نفعـل؟ الاختيـارات كثيـرة والوقـت ضيـق.

أنـا ومحمـود الصحفيـان الوحيـدان فـي المجموعـة وجاءتنـا نفـس الفكـرة فـي الوقـت نفسـه؛ ننشـر أحاديثـه الشـخصية فـي صفحـات الجرائـد. شـكري بنقـده الحكيم ورأيـه الصائـب سـأل سـؤالاً اسـتنكاريًا قضى بـه على الفكـرة: "ولكـن كـم شـخصا يقـرأ اليـوم؟" شـكرًا يـا شـكري ليـت زوجتـك تتصـل بـك وتضطـرك للرحيـل.

اقترحـت صديقتنـا سـما الفنانـة ورسـامة الكاريكاتـور أن نرسـم لـه كاريكاتـورًا يوضـح أن هـذا شـخص حقيقـي وهـو موجـود ويعيـش مـع مجموعـة مـن الأبطـال. «هـذه فكـرة جميلـة يـا سـما، اسـتمري".

"هـؤلاء الأبطـال يخوضـون رحلـة شـاقة، تشـبه رحلـة الحيـاة، ولكـن مـن يسـاعدهم فيهـا هـو العـم نعيـم بنصائحـه وحكمتـه التامـة".

أعجبتنـا جميعـا هـذه الفكـرة كمـا أنهـا بـدت غيـر مُكلفـة ونسـتطيع أن نبـدأ العمـل بهـا مـن هـذه اللحظـة ولكـن كمـا تنتشـر الكورونـا خـلال الرذاذ يبـدو أن عقليـة شـكري هبـط رذاذهـا علـى نُهـى التـي قالـت فـي هـدوء: "وهـل الوقـت مضمـون لنبـدأ هـذه الرحلـة الطويلـة التـي لا نعـرف كـم ستسـتغرق لجـذب الجماهيـر ويبـدأوا فـي التعلـق بـه، بالإضافـة إلـى أنـه برغـم حُبـي للصحـف، أنـا شـخصيًا لا أقـرأ ولا أنتبـه لرسـوم الكارتـون فـي الصحـف، أنـا أقرؤهـا مـن أجـل الأخبـار فقـط، مـع كامـل احترامـي لـكِ يـا سـما".

لـم يزعـج سـما كلام نُهـى إطلاقًـا، إنمـا أزعجنـا جميعًـا عـدم جـدوى الفكـرة التـي بالفعـل كنـا قـد تحمسـنا لهـا.

(٢)

"كله يهونلك يا عم نعيم" صرخ محمود، ثم نظر لنا قائلاً: العيب ليس فينا بل في هذا المكتب المغلق الذي نجلس فيه.

محمود يُحب الإثارة، ونحن لا نحبها، فصَمَتنا حتى انتهى من لعبته وبدأ الكلام المفيد، "سآخذكم إلى المكان المناسب للتفكير والإبداع، لا أستطيع أن أجزم ولكن أفضل مقالاتي كتبتها هُناك".

"أين سنذهب؟" سأل شكري.

أجاب محمود: "المكان قريب، لا تقلقوا".
عند مغادرتنا مجلس إدارة الصحيفة، فاجأنا موقف كوميدى لم نتوقع يوما أن يحدث. نحن الخمسة لا نعرف بعضنا البعض شديد المعرفة، عدا أنا ومحمود، فقد تخرجنا في نفس الكلية ونعمل فى الصحيفة نفسها كما أننا لدينا المسمى الوظيفى نفسه.

شكري يعمل طبيبًا، كان جاري أنا ونهى في الشارع نفسه في عين شمس. أما سما، لا تحتاج سوى أن تنظر لها لتعرف أنها بالتأكيد لا تنتمي لعين شمس رغم أن فتيات عين شمس فاتنات، ولكنك لوهلة ستعتقد أنها من فتيات الكومباوندات الفاخرة، وأن أقدامها المرفهة لم تطأ قط أسفلت العتبة، وأن منطقة الكوربة في هيليوبوليس هى

أكثر مكان مزدحم ذهبت إليه في حياتها. ولكن كل هذه خيالات كاذبة مرتبطة في ذهنك بالأفلام الأمريكية، فهي مجرد ابنة رجل وامرأة أنعم الله عليهما بأعين ملونة وبشرة فاتحة ولكنهم أُناس عاديون من شبرا.

أخ! لقد سرحت في وصف سما ونسيت أن أقول أن سبب معرفتنا بها هو العم نعيم شخصيًّا. هي تعمل معنا في الصحيفة رسامة كاريكتور ولكن نحن (أنا ومحمود) كُنا نخاف من التحدث معها لئلا نسمع ما لا يُسعدنا، وفي الحقيقة هذا لأننا أمامها كنا نتحول لاثنين من البُلهاء غريبي الأطوار لأننا كنا نتحدث عنها طوال الوقت في المقهى، كأنها كائن أُسطوري، ونعتبرها مرجعًا للجمال وأيقونة له.

المرة التي أخذت فيها محمود ليُقابل العم نعيم ليحل له مشكلته - كما فعلت معهم جميعًا عدا سما- كانت سما عند العم نعيم تبكي لسبب ما، وأصر العم نعيم يومها ألا ترحل، وعَزَّفنا عليها وكان يومًا جميلاً لأننا اكتشفنا أنها فتاة عادية جدًا وبسيطة أيضا وذات خفة دم استثنائية، لكنها كانت تبكي لسبب ما مع العم نعيم.

نسيت، أنا آسف، يقول لى أصدقائي أنني ثرثار جداً، ولكن هذا غير صحيح. الموقف الكوميدي هو أن هذه هى المرة الأولى التى نتحرك فيها سويًا للهدف نفسه. كل منا لديه سيارته باستثناء المميز محمود الذى لديه "مكنة بوكسر" سوداء (موتوسيكل صيني).

تحركنا بهدوء، الكل نحو سيارته متعجبين هذا الكم من السيارات المتاحة ولكن كُل منا أتى من مكان مختلف، والمشكلة هنا أن جميعنا سنتبع محمود بموتوسيكله العجيب. قطع د.شكري الصمت بأسلوبه الهادىء وحزمه وقال: تعالوا جميعكم معي سأعيدكم هنا بعد الجلسة. فوافقنا جميعًا حتى لا نقع تحت لعنة «سيزيف» التي تعرفونها؛ أن نُرغم على البحث الأبدي عن مكان نركن فيه سياراتنا، فيضيع اليوم وتضيع حياتنا هباءً.

أخذنا محمود لفندق مشبوه في وسط رمسيس، يبدو أن صديقي غبي ومعتوه. دخل المصعد الذي كان ينام فيه رجل بدين جدًا وأيقظه، فقام الرجل وحضن محمود كأن محمود عاد لتوّه من الخليج. وقبل أن يضغط الرجل البدين على أي زر، نظر إلينا وحيّانا «السلام عليكم» وأثناء ذلك، في بئر عميق جدًا بين ثدييه بدأ في سحب دلاية طويلة عجيبة في نهايتها مفتاح، أمسكه وأدخله في شيء مثل "كالون" فوق لوحة الأزرار ثم ضغط على آخر زر في المصعد وبدأ المصعد في الصعود، وعاد الجني حارس المصعد إلى النوم.

تتوقعون جميكم أن جميع الأنظار المتعجبة كانت تقع على محمود، لكن فى واقع الأمر كان جميعهم ينظرون لى، فأنا نقطة الوصل بينهم وبين محمود، وأنا من عرفهم على هذا الغبى المعتوه. كان محمود يُصَفِّر كأنه فى نزهة ويضحك لهم كأن ليس هناك أى شيء غريب.

ينظرون لي بنظرة لماذا يتصرف صديقك بهذا الشكل الغريب؟ والمُسلي حقًا أنني شخصيًّا لا أعرف ماذا يفعل محمود وإلى أين يصطحبنا. حمدًا لله، وصلنا ووجدنا أنفسنا على سطح فارغ تمامًا به كراسي فقط، لا توجد أسلحة ولا أي أدوات تعذيب أو رهائن غيرنا.

نظرت من أعلى السطح فرأيت رمسيس، وجامع الفتح ومحطة القطار، كذلك كوبري الليمون وبدايات شبرا، وعلى الناحية الأخرى كان كوبري أكتوبر بفروعه التي تغذي رمسيس المزدحمة بالمزيد من السيارات.

جميع الناس ضئيلة الحجم، والهواء جميل. إنه هواء آخر أبريل الدافئ الممزوج بنسائم الربيع. نظرت خلفي للباقين وهم جالسون ورأيت كوة نور صغيرة تأتي من بعيد يقف أمامها محمود المعتوه العبقري يخبئ هنا ثلاجة صغيرة بها مياه ومشروبات غازية.

"هذا مكاني السري الذي لا آخذ أحدًا له، ولكن كله يهون من أجل العم نعيم..."

(٣)

ماذا نفعل ليعرف الجميع العم نعيم؟

سؤال صعب جدًا، يبدو أن هواء سطح الفندق ونسماته لم تساعدنا على التفكير بل أخذت كل واحد منا في رحلة شجن إلى الماضي؛ متى التقينا العم نعيم، ما الموقف الذي جمعنا، وما الكلمات التي قالها. قطع المشهد الرومانسي مُحِبًّا العملية والإنجاز نهى وشكري "نحن هنا لنفكر لا لنسرح".

آخر ما توصلنا إليه كانت فكرة القصة الكارتونية التي اتفقنا أنها ليست نافعة. سألت نفسي وأنا أشاركهم بصوت عالٍ: "لماذا نفكر كأن علينا أن نعمل سويًا؟ لماذا لا نفترق، ننقسم كفريق متفق على خطة، جاعلين في عددنا هذا تأثيرًا أكبر...أنا لا أعرف، ولكن مبدئيًا لماذا لا تبدأ سما مثلا بمشروع القصة المصورة الخاص بها عن العم نعيم؟ وأبدأ أنا ومحمود بالكتابة عن أحاديثه معنا، وتجتهد نهى في أمر ظهوره على التلفاز وأنت يا شكري على الإنترنت، فننقسم كالنار في الهشيم، ونحقق أعلى فائدة من تعاوننا".

نظروا بعضهم لبعض في سكوت لم أفهمه، توقعت إعجابهم بالفكرة...ولكن الجميع صامت، لا أعرف لماذا.

كسرت سما الصمت وقالت: "في الحقيقة أنا هنا ليس فقط من أجل العم نعيم، بل لأكون معكم، أنا لا أريد أن أعمل وحيدة، أنا أحب هذا الرجل وأقدره جدًا وأشكر الظروف والأقدار جميعا التي جعلتني ألتقيه في هذا الوقت من حياتي ولكن أنا هنا لأكون في وسطكم ولأعمل معكم".

لم يعلق أحد على كلام سما ولكن لم يعترض أحد أيضًا، يبدو أن معرفتنا لهذا السر وإيماننا بهذا الهدف أعطانا نوعا من الانتماء والهوية. ولكن ما العمل الآن؟

هذا التجمع قد يبدو غريبًا، لكنه ليس غريبًا بالمرة. جميعنا تعرف على العم نعيم في ظروف مختلفة وأحببناه لأسباب مختلفة وكان لكل منا الحكيم الذي يعطينا تبصُّرًا لم نفكر فيه من قبل أو المكان الآمن الذي نهرب إليه عندما تكون خطوة الزمن ثقيلة على قلوبنا. وعنده وجدنا الراحة والإرشاد. ولكن مرة بعد مرة وصدفة بعد صدفة ونقاشًا بعد نقاش أصبحنا نلاحظ قدر هذا الرجل وقيمته في حياة خمسة أشخاص يعرفونه، فماذا لو عرفه مبدئيًا مائة مليون؟

لهذا اجتمعنا، لكن يبدو أنها مهمة مستحيلة، قلت لهم: «حلمنا مستحيل يا أصدقائي، صعب جدًا وكبير للغاية ويجب أن نفتته لأحلام صغيرة وأهداف قصيرة المدى وإلا عظمة حلمنا ستشل أقدامنا للأبد وسنبقى في أماكنا نستأنس الماضي وما عرفناه ونخاف المستقبل الذي نحلم به".

فقالت نُهى: "يبدو أن هذا أمر صعب. لماذا لا نذهب عند العم نعيم ونجلس معه ونشرب الشاي ونتحدث أمامه ونسمع رأيه؟ بالتأكيد سيفيدنا كما اعتدنا".

"ولكن علىَّ الذهاب إلى المستشفى غدًا في الصباح الباكر» قال شكري.

و أضافت سما: "وأنا الوقت تأخر بالنسبة لي...يجب أن أرحل».

أنا لم يكن يهمني الوقت ولم أُلاحظْ قبل هذه الثانية أن محمود قد احتضن وسادة منذ البداية وذهب في النوم دون أن نشعر. فقررنا أن نرحل لننام ونتقابل جميعنا غدًا عند العم نعيم ونصل لخطة جيدة بمساعدته.

أحسنتِ يا نُهى، فكرة رائعة، النوم مكان رائع لبداية حُلم.

(٤)

أمـام مكتبـة العـم نعيـم وقفنـا جميعًـا نشـاهد محمـود وهـو يَربُـط موتوسـيكله ككلـب حتـى لا يسـرقه أحـد. نزلنـا سـلالم المكتبـة العتيقـة ووجدنـا طفـلاً لـم نـرَه مـن قبـل.

سأله محمود: "أهلا يا حبيبي، أين العم نعيم؟"

ردَّ الطفل: "العم نعيم مَنْ؟"

أجبته سريعًا: "العم نعيم صاحب المكتبة".

فقال الطفل: "هذه مكتبة أبي، ولا يوجد أحد هنا باسم العم نعيم".

وصفناه للطفل ولم نقتنع بما قاله كأنه لم يقل شيئًا. حتى جاءت أمه، كانت تنزل على السُلَّم وحيتنا، سألناها عن العم نعيم فنفت هي أيضا معرفته. فوصفناه لها: "رجل عجوز عمره حوالي سبعين عامًا، يتحدث بصعوبة، أصلع قليلاً، عيناه واسعتان ملونتان وبشرته فاتحة"...لم يغير شيء من أوصافنا وجه أم الطفل، هي لا تعرف عمَّن نتحدث. ردت بكل ثقة كأننا نحن المَجَانِين وهي العاقلة «هنا لا يوجد لا نعيم ولا جحيم، هنا يوجد كُتب وأنتم وأنا فقط".

شكرًا مدام جهالات على هذا الوصف الدقيق الرائع، أكرمينا بصمتك المفيد. نظرنا بعضنا لبعض ونحن نعلم أننا لو تركنا أنفسنا لعُدنا لبداية

الحوار من جديد وأعدنا سرد أوصافه من جديد ولكن نحن أيضا نعلم أن هذه دائرة مفرغة.

خرجنا خارج المكتبة ووقفنا أمامها غير فاهمين أى شىء. لا نستطيع الاستيعاب. لقد أخذنا الإجازات من عملنا لنأتي له في الصباح الباكر، لقد اعتدنا أن نذهب له بعد أشغالنا أو ليلاً، كنا لا نجده أحيانًا ولكن لم نكن ننتظر، نرحل ونأتي له في يوم آخر.

نحن واثقون بأننا رأيناه وتحدثنا معه. سأل محمود نُهى: "هل عندما رأيته كان يلبس نظارة؟" فقالت بكامل الثقة: «لا». نظر محمود لي ولسما: "كيف ونحن لم نقابله يوما إلا وكان لابسًا نظارته. أوصفيه يا نُهى من فضلك".

فقالت: "كان طوله بهذا القدر..."

أوقفتها: "لا يا نُهى كان أطول، كان أطول من شكري" لأن شكري أطولنا. ولكن شكري قال لي: "كيف؟ هو في الطول الذي تصفه نهى"، كان رجلاً قصيرًا، لا بل كان طويلاً وأعرج، وشعره أبيض، لا بل كان شعره رماديًا مع بعض الخصلات السوداء، وكانت عيناه زرقاوتين، كلا، عيناه كانت بنية عادية، ذراعاه كانا مشعرين، لا بل كان أملس، صوته كان خشنًا وقليل الكلام، بل صوته عذب وكلامه مسترسل، حتى سما ومحمود الذين اجتمع ثلاثتنا أكثر من مرة مع نفس الرجل اختلفنا في أوصافه. لقد جلس كُل واحد منا مع شخص مختلف. كل واحد منا رأي صفات تختلف عن الآخر. ولم يكن هذا مجرد اختلاف بل تضاد صريح.

اختلفنا في أوصافه، ولكن بالتأكيد هذا بسبب التوتر! كل الأوصاف متقاربة وهي مجرد وجهات النظر المختلفة. إن العيب فينا، في أعيننا التي نظرت على بعض صفاته واختلقت الباقي فصار كل منا يقول جزءًا من الحقيقة وجزءًا آخر من خياله، ما الذي يحدث؟ وأين هو العم نعيم؟

هل المرأة التي في المكتبة تكذب علينا؟ ولكن إن كانت هي تكذب لماذا لا نستطيع نحن أن نتفق على جمع صفاته؟ أنا لا أفهم شيئًا ولا أستطيع تفسير ما يدور حولي.

ما زلنا واقفين جميعًا أمام المكتبة. جميعنا نشُك أن صاحبة المكتبة وابنها يكذبان. بقينا منتظرين لعل الكاميرا الخفية تظهر من خلف الأشجار، أو يعود العم نعيم من المتجر لأنه كان يشتري بعض الأغراض. نحن في انتظار أي شيء سوى هذا الشيء الذي نشعر به الآن...نحن من بضع ساعات كنا نخطط كيف سنجعل هذا الرجل مشهورًا، وأن يعرفه كل خلق العالم، وفي أقل من يوم نكتشف أننا نحن شخصيًا لا نعرفه بالقدر الكافي. هل هذه هي سخرية القدر؟ لا أعرف، ولكني متعب ولا أريد تصديق أي شيء الآن.

(٥)

تَسَرّبَ بعض المنطق إلينا.

قال شكري: "في كل مرة آتى إليه، كان يمسك دفترًا ذا جلد كثيف يكتب فيه، إن وجدنا هذا الدفتر إذا مبدئيًا العم نعيم حقيقة وليس وهمًا".

نزلنا نحن الخمسة السلالم مسرعين وسألنا السيدة عن الدفتر، فتركت لنا المكان وجعلتنا نبحث كما نشاء. المكتبة قديمة ولا يأتيها أحد فلا يوجد فيها شئ ثمين، والشيء الثمين الوحيد الذي كان هنا، اختفى.

وجدته!

وجدت سما كتابًا ينطبق عليه مواصفات شكري. فتحناه، نعم إنه ملئ بملاحظات ورسومات وكلام يشبه ما سمعناه من العم نعيم. فسألنا السيدة ثانية: «لقد وجدنا هذا الدفتر فكيف لنا أن نعرف أنه موجود من الأساس؟ وخط من الذي فيه؟» فردت بالإنكار ثانية. هى ليس لديها أى فكرة عنه، ولكنها نطقت بالشئ الوحيد المفيد منذ لحظة ظهورها؛ أنها تفتح المكتبة يوميًا ليدخلها الهواء وتتركها مفتوحة لوقت طويل وتغادر، وهي تعمل خادمة في المنازل في وسط البلد ثم تعود تغلقها ليلاً لتنام هي وابنها.

وبهذه الكلمات أعزائي قد يكون العم نعيم أي شخص في جمهورية مصر ذات المئة مليون نسمة.

بقينا جالسين مترقبين ظهورالعم نعيم ولكن بلا فائدة..

وأثناء ذلك كان شُكري قرأ كل كلمة في دفتره مرتين، ثم قال: "يجب أن أعود إلى المنزل ولكن اسمعوني جيِدًا، هذا الدفتر كنز، به نصائح للحياة وأفكار عميقة ومهمة جدًا. نحن لا نعرف أين العم نعيم الآن ولكن مبدئيًا نستطيع أن نبدأ بنشر هذا الدفتر بشكل منظم، حتى يظهر صاحبه، الكلام المكتوب هنا مفيد ويؤكد على حقيقة الرجل الذي قابلناه".

جميعنا ينكر أو يتناسى موقف اختلافنا في وصفه، لأنها بدت فكرة مرعبة بالنسبة لنا...

"هل ستساعدني في تنسيقه؟» سأل شكري موجها سؤاله إلى، ولكنني متردد، لا أعرف هل نشر كلام العم نعيم دون وجوده معنا شيء مفيد أم لا. أنا أعتقد أن قوة الكلمات الحقيقية تنبع من عظمة لقاءاتنا الشخصية معه. ولكن شكري لم يوافقني الرأي ويرى الكلام قويًا ومؤثرًا هنا في حد ذاته. فكرته ليست سيئة، فهي أفضل من أن نقف مكتوفي الأيدي حتى يظهر العم نعيم، إذا كان اسمه العم نعيم.

"لا أشعر بأنني سأستطيع يا شكري".

فرشح محمود نفسه للمهمة وتبادلوا أرقام هواتفهم وقال شكري عَلَنًا أمامنا أنه متكفل بمصاريف عمل محمود ومصاريف نشر الكتاب وسيعتبر أن هذه مهمته حتى يظهر العم نعيم من جديد.

استأذن شكرى ورحل، وتبعته الفتيات، ثم محمود، وأنا غلبني النعاس ولكن خشيت أنه بمجرد أن أترك المكان يظهر العم نعيم. والسيدة التي تنام في المكتبة تتعامل مع الحياة ومع وجودنا كأننا هواء غير منظور. خرجتُ من المكتبة وأشعلت سيجارة واتكأت على عمود نور، حتى رأيته فى الناحية الأخرى من الشارع.

ركضت نحوه وكادت سيارة أن تصدمني، اعتذرت لسائقها، ونظرت ثانية للعم نعيم، ها هو يتمشى! إنه حقيقة وليس وهمًا! ركضت نحوه وناديته، يبدو أنه لا يسمعني، "عم نعيم، عم نعيم..." استدار الرجل ونظر لي، "من هذا؟» اعتذرت له وتوقفت، هذا ليس جيدًا، إنه ليس هو، عدت أنظر إلى المكتبة فوجدت السيدة واقفة تنظر لى وتضحك هي وابنها. معها حق، أبدو كمجنون، ولكن أين هو العم نعيم؟

(٦)

مرت مئة عام، أو عشر سنوات لا أعلم.

منذ ذلك اليوم وكلنا تائهون ولم يظهر العم نعيم بعد، لا يعرف أحد مكانه، رغم أننا بذلنا مجهودات مضنية في البحث عنه.

فتح شكرى خلال هذا الوقت سلسلة مستشفيات وجعل الجملة المكتوبة فوق اسم جميع مستشفياته إحدى الجمل المأثورة للعم نعيم.

لقد نشر بالفعل بعد ثلاثة أشهر هو ومحمود كتاب أقوال العم نعيم، أو كما سموه "دليلك للنعيم». بسبب الكتاب واسم شكري الذي لمع في عالم الطب تستضيفه القنوات كثيرًا وهو للأمانة لا يضيع فرصة للإشارة إلى أن سر نجاحه هو لقاؤه بهذا الرجل الغامض الحكيم. ما يفعله شكري فعلاً قوي ومؤثر.

نشرتُ مجموعة مقالات تحولت بعد ذلك لكتاب أيضًا وهى عبارة عن الأحاديث الشخصية للعم نعيم معي ومع آخرين، ومع بداية نشر الأحاديث في الصحيفة بدأ يتواصل معي العشرات الذين يعرفون العم نعيم والذين قابلوه وتكلموا معه وهم أيضًا لا يعرفون مكانه. نشرتُ جلساتهم وأحاديثهم معه، وكوَّنا رابطة واجتمعنا على جروب على "الفيسبوك" يسهل علينا التواصل ولنذكر بعضنا البعض بما قاله لنا العم نعيم الحكيم إن احتجنا إلى ذلك.

بالمناسبة أنا وسما تزوجنا، ولدينا الآن رنا وسما. سُميت الصغيرة على اسم أمها لأنها كانت شديدة الجمال مثلها، ورأيت أن من حق العالم أن يحظى باثنتين وأكثر من هذه الفتاة الرائعة.

حاولت سما نشر مشروعها الكرتوني لكن الصحيفة رفضته ولم يروا فيه تميزًا فنيًا أو أدبيًا، ولكننا عاطفيون ومتعلقون بالقصة التي فيه. شاركنا مع شكري ما حدث في اجتماعنا الشهري، فدفع هو لسما مصاريف نشر الكتاب في المكتبات وأحبوه الأطفال فعلاً.

محمود يعمل مستشارًا إعلاميًا لشكري الآن، عفوية محمود وعقل شكري، جعلاهما يُكَوّنان صداقة مميزة تدوم وجعلتهما يفكران معًا في كل شيء على سطح هذا الفندق المشبوه.

وأخيرا نُهى تعمل نهارًا وليلاً على "السوشيال ميديا" والبرامج التلفزيونية وتتحدث عن فشل العالم في تقدير رسالة العم نعيم وحكمة فلسفته وأن العالم كل يوم يغرق أكثر في بحر التفاهة والسطحية. نتبرأ منها أَحيانًا ونقف بجانبها أَحيانًا أخرى ولكنها شطحت جدًا وإيمانها بأفكار العم نعيم صار موضع سخرية لأنها أصبحت تتحدث وكأنها من زمن آخر ومن عالم ثانٍ. وهذا ليس العم نعيم أو منهجه، الرجل إن كان أي شيء فهو كان معاصرًا للواقع ولنا وليس جامدًا، بل كان يعرف ماذا يقول وأين يقوله، ولكن نهى خلطت الأوراق.

أعلم أن نيتها طيبة ولكن ما النيات في التطرف الزائد. لا تسيئوا فهمي، تطرف نهى ليس بضجيج وصراخ، ولكنها كالذي يكرر فكرة واحدة ثابتة مغلقًا أذنيه عن أي شيء آخر ومغلقًا عينيه أن يرى أنه لا يوجد فائدة مما يفعل، وبدلاً من أن تكسب أراضي جديدة، تخسر كل يوم أي شخص يسمعها أو يراها وهي تتكلم بتلك الطريقة.

نهى تريد أن تنشر السينما أفكار العم نعيم وبرامج المقالب وأغاني الشوارع وألعاب الأطفال. تريد العالم كله أن يردد ما قاله الرجل. الفكرة

أن كلام العـم نعيـم هـو كلام للنفـس وللـروح، وهـو كلام شـخصي جـدًا، وهـذه الأشـياء التي تشـغل بالها بها هي أدوات ترفيه يسـتخدمها البشـر للمتعـة وللانفصـال قليـلاً عـن رتابـة الواقـع وملـل الحيـاة.

ولكـن لا وألـف لا، نهـى تريـد أن تضـع الـدروس فـي الشـاي، فـي المـاء، تريـد أن تدخـل لـك مـن كل القنـوات وتظهـر لـك فـي منامـك. هـي تتخيـل أن العالـم هكـذا سـيصبح أفضـل ولكـن فـي الحقيقـة العالـم الملتـف حـول الشـك والإيمـان فقـط هـو عالـم ممـل.

(٧)

لحظات نادرة يتفق فيها محمود مع نُهى.

محمود رجل حماسي عاطفي، قلبه يقود دفته، ومشاعره تقود قراراته، ولكن نهى العكس تمامًا، هي امرأة حازمة جدًا، عملية لأبعد حد.

قالت نهى جملة لطالما كررتها في اجتماعاتنا الشهرية ولكن هذه المرة قالتها بحماس أعلى "يجب على أفلام السينما أن تبرز الجوانب الإيجابية أكثر، أن يأخذوا من حياة العم نعيم ويملؤوا بمقولاته ديالوجات الأبطال."

نحن في شهر رمضان ومنذ سنوات وهذا الشهر هو وقت لعرض عشرات المسلسلات بمختلف القصص وقد تابعت نهى مسلسلاً تلو الآخر لتجد أن كلهم مليئون بأبطال أفعالهم ليست جيدة ولكن الكاتب يبررها دراميًا.

نصحتها بمسلسل أعرف أن بطله شخصية حسنة الخُلق تحارب الفاسدين في المجتمع، فلم ترتح أيضًا، هي تريد إشارات واضحة لكُتبنا وذكر واضح للعم نعيم في الأعمال الفنية...

وهنا كانت المفارقة عندما صرخ محمود: "معك حق يا نهى، معك حق، ليس فقط الأفلام، بل الأغاني أيضًا، والبرامج...تعالوا ننشئ قناة، ما رأيك يا دكتور؟"

شكري هو شبه الممول لأغلب أفكارنا طيلة هذه السنوات، فهو أكثرنا غنى وأشهرنا اسمًا.

تدخلت قبل رد شكري بثوانٍ: "سامحوني يا جماعة ولكني أرى في تطرفنا هذا إلغاء للآخر، أرى فيه هدم لهذه الفنون ولدورها، هذه الفنون دورها أن تكون منصات للجمال والثقافة، إنها أدوات في الأساس أُنشئت للمتعة، إن أفسدناها بالمواعظ والإشارات للعم نعيم لن يشاهدها سوى من يؤمن بأفكارنا، وسندخل في دائرة مفرغة من الشعور بالإنجاز ونحن كل ما نفعله هو أننا نؤكد لمن يؤمن بأفكارنا في الأساس أن أفكاره وأفكارنا سليمة، جميلة وسليمة وعلى حق، وهو يعرف ذلك أصلاً لأنه يؤمن بها. لن يستفيد أحد بهدر هذا الوقت والمال. دعونا نركز على تطوير أنفسنا وعلى فهمنا لما نعرفه عن العم نعيم حتى عندما يعتدل أحد ليعرف منا ما نعرفه لا يجدنا منشغلين بأعمال أخرى".

قالت سما: "أنا أتفق معك، هذه الفنون لنشر الجمال ولعرض قصص مسلية، ليس منطقيًا لأننا قابلنا شخصًا غير حياتنا أن نملأ الدنيا كلاما عنه، كأن هذا الكلام ليس ثمينًا وليس شخصيًا لأبعد حد...لن يبحث أحد عن العم نعيم في السينما ولكن هناك أماكن أخرى سيبحثون عنه فيها، يجب أن نكثف جهودنا هناك".

لم يتفوّه شكري بكلمة. ولم ترد نهى على اعتراضي أنا وسما ولا حتى محمود. لم أفهم في الجلسة سبب صمتهم ذلك وتغيير الموضوع ولكني فهمته فيما بعد، بعدما أنشأ شكري قناة باسم الطريق للنعيم دون إخباري أنا وزوجتي. وفهمت أن آراءنا عن الفن وتركه باعتباره مكانًا للتعبيرعن النفس وليس التوجيه لم تكن مقبولة لهم، ولا أعرف ماذا سيكون شكل اجتماعنا التالي ولست متأكدًا بأنه سيكون هناك واحدًا من الأصل.

حَزنّا أنا وسما من هذا الفعل وتابعنا قناة أصدقائنا وصار هناك برنامج

لـكل واحـد منهـم، وليـس لـدى شـك أن مـن يتابعهـم هـم فقـط مـن يعرفـون فـي الأصـل العـم نعيـم ولا يحققـون شـيئًا جديـدًا بهـذه القنـاة سـوى صـرف المـال والشـعور بالإنجـاز.

رَنّ رقـم غريـب علـى هاتفـى، وأظهـر برنامـج كشـف الأرقام أنه رقم لشـخص يدعـى هانـي نعيم...عقلـي تـردد، هـل أرُد؟ أم هـذا تشـابه أسـماء؟ أم العـم نعيـم لـه ابـن وهـذا الابـن يريـد التواصـل معـي بعـد مرورعشـر سـنوات؟ عقلـي ملـئ بالأسـئلة ولا يوجـد غيـر حـل واحـد للوصـول لأى إجابة...ألـو.

(٨)

وصلت المستشفى. قدم لي هاني نفسه، وعزيته في والده، ودخلت الغرفة لأراه أخيرا بعد كل هذه السنين. إنه العم نعيم، نائم في سرير المستشفى.

كل الأسئلة كانت إجاباتها أمامي. ولكني لم أكن أريد أي إجابات بل فقط أن يقوم ويجلس ويتحدث معي لمرة واحدة أخيرة.

بكيت بشدة، وحزنت من كل قلبي. وفهمت لماذا احترنا يومها في وصفه. عم نعيم كان مصابًا بمتلازمة نادرة جدًا، تعتبر خللاً في توزيع صبغة اللون في الجسم وينتج عنها كل ما سمعتوه منا (Waardenburg syndrome).

كل عين لها لون مختلف، فى حالة العم نعيم كانت واحدة زرقاء والأخرى بنية. شعره كان من الأمام أبيض ناصعًا والجانبان كانا ذوي لون رمادي وخصل سوداء، لم تكن قدما العم نعيم بنفس الطول، فكانت وقفته مائلة ومشيته عارجة، ولكن لأننا كنا في الأغلب نقابله وهو جالس في المكتبة فلم نلاحظ ذلك، لديه نظارة لكنه لا يستخدمها سوى للقراءة. حقًا جميعنا قلنا الحقيقة وكنا نعرفه، ولكن كل منا نظر له من زاوية واحدة، ولن يتسنى لنا تغيير ذلك الآن.

أول مرة أراه صامتًا لهذا الحد، عيناه منطبقتان دون حركة، أحقًا مات وبحثنا عنه انتهى؟

استأذنت هاني أن أُخبر الباقين لكنه رفض. قال هاني « العائلة كلها تقف في الخارج كما ترى، لا يوجد وقت ولكني كلمتك أنت فقط لأن أبي ترك هذا الكشكول لك. أَبلِغهم أن يلحقوا بنا في العزاء.“

أين كان العم نعيم ولماذا لم يكلمنا ويقف بجانبنا في الحملة التي قمنا بها لأجله؟ وجوده كان سيؤثر بشكل كبير، إن لم يكن مع الناس، كان سيكون معنا نحن على الأقل، لقد حزنا جدًا وبحثنا عنه في كل مكان.

أجاب هاني: ”لكنكم لم تبلغوا الشرطة، إن كنتم قدمتم بلاغًا عن اختفاء أبي كانت ستجده الشرطة في أقل من ثمانٍ وأربعين ساعة، أبي شكله مميز جدًا“.

فقلت له ما تعرفونه، كنا خائفين من تخبط أوصافه فيعتقدون أننا مجانين، كيف لم نلاحظ صفاته المميزة جدًا؟ كيف وواحد منا طبيب؟ يبدو أننا جميعًا كنا نذهب يا هاني إلى أبيك ونحن أعيننا على أنفسنا، لا نرى منه سوى القليل، وننظر فقط لعلتنا وسبب تواجدنا، ولكننا أحببناه بحق، لقد غير حياتنا بكل تأكيد.

كلمت الباقين ولم يرد عليّ الثلاثي المتفق معتقدين أنني أحدثهم بسبب أمر القناة، فأرسلت لهم رسالة جعلتهم جميعهم أمامي في أقل من ربع الساعة...

”لقد وجدت العم نعيم، وقد مات.“

بعد انتهاء العزاء وقفنا معًا بالخارج، جميعنا صامتون لا نريد أن نتحدث. أنا أريد أن أعاتبهم ولكن الوقت ليس مناسبًا، وهم يريدون الدفاع عن أنفسهم ولكن الوقت ليس مناسبًا، قطع شكرى هذا السكون قائلاً: ”ما حدث اليوم لن يغير شيئًا، نحن نعمل منذ عشر سنوات بسياسة تعتمد على أنه عائد يوما ما، لن نغير شيئًا بعد موته، لقد تجمعت الناس حولنا لأنهم يريدون أن يقابلوه، ونحن سنستمر فى البحث عنه

وكذلك في الكلام عنه أيضًا، نشر أننا وجدناه وإنه ميت الآن لن يفيد عملنا بأي شيء، سنستمر على نفس المنوال وسنبتعد عن أي شيء يفتح أبواب الجدال وتعطيل ما نقوم به".

فأجبته: "تريد أن تخفى عن الناس موت العم نعيم؟ تريد أن تكذب وتتستر على حقيقة جديدة صارت معك؟ ماذا حدث لك يا شكري؟ ماذا تغير؟ هل هذا منهجك الجديد؟ قد بدأنا هذه الرحلة من الأساس لنجد العم نعيم وليقابله الناس، والآن وجدناه ولن يقابله أحد، كيف نستمر على المنوال نفسه؟"

"نحن آسفون لما حدث يا صديقي، لم نقصد أن نخسرك أنت أو سما ولكن كان واضحًا أن آراءكما مختلفة عن آرائنا".

"لا يا شكري، لا، القناة ظهرت بعد الجلسة بأسبوع أو أقل، لقد كنتم تعملون من وراء ظهرينا، لم تحترمونا يا شكري! الجلسة كانت منصتكم لتعلنوا لي ولسما أن القناة تحت الإنشاء».

رد محمود: "ما المشكلة؟ كنا نجهزها أنا وشكري مفاجأةً لكما".

"هل نسيت يا محمود أنني أنا من عرفكم على العم نعيم؟ أنا من أخذكم واحدًا بعد الآخر له، أنا من لم يكن أنانيًا من البداية معكم، لماذا أنتم أنانيون معي؟"

قالت نهى: "كانت مفاجأة لنا لا أكثر ولا أقل، لم يكن هناك داعٍ للاعتراض من الأساس، فكلامك أنت وسما كان اعتراضًا على فكرة أعجبتنا نحن الثلاثة، فما المانع من الافتراق وتركيز المجهود في طرق مختلفة؟"

قال محمود وهو يسعى أن يحافظ على ما تبقى من صداقتنا: "ألم تكن هذه فكرتك من البداية؟ أتتذكر تلك الليلة على سطح الفندق عندما جلسنا معًا من عشرة أعوام؟ قلت لنا لماذا نفكر بطريقة جماعية ونحن بإمكاننا أن نعمل منفصلين كالنار في الهشيم!"

"أنا لا أعترض على الانفصال يا محمود، بل أعترض على الطريقة، طريقتكم تقول أن رأيي أنا وسما لا يفرق معكم".

فرد شكري: "ألم تغير رأيك بعد أن رأيت نجاح القناة؟"

"القناة ناجحة بمحبي العم نعيم، الذين اجتهدنا جميعًا لمقابلتهم مقابلات شخصية، ولمساعدتهم على تغيير حياتهم".

"لا شيء تقوله له أي مصدر يا صديقي، القناة منتشرة ويراها الكثيرون وقريبًا سنبدأ موقعًا إلكترونيًا وقناة "يوتيوب" والكثير قادم ويجب أن تكون معنا".

"أنا وسما ما زلنا نرى أن هذه ليست الطريقة التي سيصل بها العم نعيم للناس".

«إذن أنت تريد أن تنفصل عنا؟ نحن مددنا لك يدنا وأنت رفضتها".

قال شكري: "سما أنتما لستما شخصًا واحدًا، هو حر في رأيه ونحن نحترمه، ولكننا نريد أن نصنع كرتونًا للأطفال وأنتِ أفضل من يرسم شخصياته، ما رأيك؟"

قالت سما لشكري: "حتى لو كنت موافقة على مبدأ الكارتون للأطفال، فموافقتي الآن على عرض العمل معك ليست فقط موافقة على العمل، بل أيضًا موافقة على الطريقة التي تعاملتهم بها معنا من قبل، وموافقة على ظهوركم أنتم الثلاثة على القناة، كل موافقة تحصلون عليها الآن ستعطيكم قوة للاستمرار والشعور أنكم تفعلون الصواب حتى إن كنتم أبعد ما يكون عنه، الناس ستعمل معكم من أجل المال لا الرسالة، تذكر هذا يا شكري".

" أنتِ تبالغين فى الأمر يا سما" قالت نهى، "ولكنكم أحرار، وداعًا، ها هو الرجل الذي بحثنا وعملنا من أجله لسنوات قد دفناه. لولا عظمة ما

حققناه لقلت لكم هلما ننهي كل شيء ونتوقف ولكن الأمر صار أكبر منا".

قالت هذه الكلمات وودعتنا جميعًا وتركت الدائرة ثم تبعها الباقون.

"نسيت أن تقول لهم عن الكشكول الذي قدمه لك ابن نعيم" قالت سما.

فقلت لها: "لم أنسَ."

(٩)

لم أستطع الذهاب للمنزل قبل أن أتحدث مع هاني.

وصَلَت سما إلى المنزل واتصلت بهاني وها أنا أنتظره فى ميدان التحرير.

تشغل عقلى الملايين من الأسئلة؛ جلست أفكر لماذا أنا الوحيد المشغول بمعرفة أين كان العم نعيم في آخر أيامه؟ ألم يحبوه مثلي ويستفادوا منه مثلي؟ أم أنهم يشعرون الآن أن العم نعيم مديون لهم بالمجهود الذي بذلوه وبالمال الذي دفعوه من جيوبهم وهو لم يحاول حتى التواصل معنا.

لقد مللت الانتظار وهاني لم يرد على آخر اتصالاتي فتوقعت أنه نام أو أنه شعر بالحرج من الاعتذار عن المجيء بعد يوم طويل كهذا فقرر ألا يرد. فى النهاية هو لا يعرفني، لقد تقابلنا فقط اليوم، ويومه كان طويلاً وصعبًا، نحن فقدنا مُعلما أما هو فقد أباه.

جلست في السيارة وأمامي كشكول العم نعيم الجديد، أفكر في أن أفتحه ولكني خائف. هذه آخر كلمات الرجل وأراد أن يعطيني إياها. لماذا؟ ألم يصل له أننا نشرنا الدفتر القديم؟ أم هل رآه وهذه تعليقاته على ما رأَى؟ أم أن هذه رسائل خاصة لي؟ فتحت الدفتر وبدأت أقلب فى صفحاته، إنه الكلام نفسه، نفس النصائح، نفس النظريات عن الحياة، عن محبة أنفسنا وعن محبة الناس.

سالت دموعي دون أن أقصد، أردت المزيد، أردت أن يقول شيئًا جديدًا، أن يقول شيئا شخصيًا لي كما اعتاد، أود مقابلة معه ولو كانت مقابلة واحدة فقط لا غير. إن قلبي يؤلمني على فراقه، لم يكن بالنسبة لي مجرد شخص أو شيخ حكيم، كان لي كأب، كأب يعرف ضعفي جيدًا، فيطبطب عليه. لماذا مُت يا عم نعيم؟ لماذا اختفيت هذه السنين كلها؟ أشياء كثيرة حدثت. كنت أود أن تكون موجودًا.

إن لم يكن أبوك عطوفًا وأنت صغير ستحيا حياتك كلها تبحث عن شخص عطوف، يعوّض احتياجك هذا ويملأ الفراغ الذى بداخلك، وكان هذا العم نعيم بالنسبة لي، دون أن أطلب منه، دون أن أفعل شيئًا.

ليتني أَبلغتُ الشرطة، ليتني لم أخَف أن يقولوا عن محاولاتي أنها بائسة، ليتنى كنت أفوز ولو بجلسة أخيرة معك.

طرق أحدهم على الزجاج، فمسحت دموعي في ثوانٍ. وصل هاني، فتحت له الباب ليدخل ويجلس. اعتذر لي لأنه كتم صوت هاتفه ليتفادى سيل الاتصالات في يوم كهذا، فهو لم يكن بمقدوره أن يرد على الكل.

احتراما له ولظروفه حكيت له باختصار ما فعلناه من يوم اختفاء والده، وأننا كنا نفعل كل هذا من أجل الوصول إليه.

فسألني هاني أن أحاول تذكر تاريخ اختفاء والده بالنسبة لنا واستطعت أن أُحَدد اليوم. إنه يوم لا يُمحى من ذاكرتى.

قال لي هاني: "قبل هذا بيوم سقط أبي على السلم وهو يصعد لمنزلنا، ودخل في غيبوبة أَفَاقَ منها من خمسة أعوام، ولأنه كان يحب الريف، طلب منا أن يقضي آخر أيامه هناك. نقلنا حياتنا جميعًا إلى الصعيد، كان كأنه يسترد عافيته كلها، الرجل كان عجوزًا جدًا كما تعرف".

"ولكن إن كنتم في صعيد مصر آخر خمسة أعوام كيف مات هُنا؟ لماذا

عدتم إلى هنا؟"

" لقد جاء لمقابلتك أنت».

هل رأيتم مشاهد محاولات الأطباء إرجاع قلب ميت للحياة بالصواعق الكهربائية؟ هل تتذكرون جحوظ عين المائت عندما يعود للحياة واحتفال الأطباء أنهم سرقوا روحًا أخرى من ملاك الموت؟ هذا كان حالي بعد هذه الجملة القصيرة، لقد كان عائدًا من أجلي.

"هل قرأت كلماته لك في آخر صفحة في الكشكول؟"

لم أقرأها أنتم تعلمون، ولكن الآن روحي شبعانة وأريد أن اقرأ كلماته الأخيرة لي منفردًا في مكتبي في المنزل وأنا أُقبل يدي سما كى ترسم "بورتريه" ملوّنًا للعم نعيم.

كان يفكر فيّ لآخر لحظة في حياته.

قلت لهاني: "نعم لقد قرأتها، أنا ممتن جدًا لك، ولكن، ألم يصل لك يوما الكتب التي نُشرت والمقالات الصحفية واللقاءات التلفزيونية التي تتحدث عن رجل عجوز غير حياة الكثيرين، التي كانت عن أبيك؟"

فأجاب هاني: «لا، لم يصل لنا أي شيء، وبالعقل والمنطق يا صديقي، كيف يمكن وكل يوم تُنشر آلاف الكتب، وتذاع آلاف البرامج ومن أصلاً يقرأ الصحف الآن؟"

معه حق، معه كل الحق، لكن أباك يا هاني كان رجلاً عظيمًا يجب أن تعرف ذلك، لقد كان كنبي يرى المستقبل أو مُعلم مميز يفهم الناس من كلمات بسيطة، من نظرة عين. نحن خمسة أشخاص صرفنا آلاف الجنيهات فقط لنشر قصته، يجب أن تكون فخورًا بذلك. قال هاني إنه فعلاً فخور وإن أباه في القرية كانت هوايته الجلوس على مصطبة المنزل يوميًا ليتحدث مع الناس ويسمعهم ويشجعهم على الحياة...

المزيد من الناس الذين تقابلوا مع العم نعيم مقابلة شخصية، سأذهب هناك يوما ما.

وداعًا يا عم نعيم، بالتأكيد لن أنساك.

(١٠)

ما يبدأ الآن هو حرب لا أعرف كيف اشتعلت!

استيقظت اليوم لأجد على هاتفي سبعين اتصالاً لم يُرد عليهم. إنهم محمود وشكري. غسلت وجهي واتصلت بمحمود، كان آخر من كلمني.

"ماذا هناك يا محمود؟"

"قل لي أنت ماذا هناك؟ أعلنت الحرب علينا يا صديقي، أعلنت الحرب؟ الناس يعتبروننا نحن الخمسة المرجع لتعليم العم نعيم، فتقول أنت أننا لا نفهم تعاليم الرجل للنهاية...هل جننت؟؟!!»

أحتاج إلى أن أحكي لكم شيئًا في البداية لتفهموا ما الذي يحدث، بدأت القصة منذ ثلاثة أيام...

أنا وسما لا نغلق قناة الطريق للنعيم طوال اليوم في المنزل، مهما حدث هؤلاء الأشخاص أصدقاؤنا، ومهما كان، الرسالة التي يقدمونها مهمة بالنسبة لنا، وفي يوم ونحن نشاهد برنامج نُهى "خلف الأقنعة»، نجدها تهاجم الآخرين بقوة وشراسة. بدأت تراودها الحالة القديمة أن كل من لا يحيا بكلام العم نعيم يهدر حياته، وعدم تقديرهم لكلامه مصيبة، وأن العم نعيم لو رأى ما يفعلون لأطلق عليهم الرصاص، ما هذا بالظبط؟

لم أحتمل ما رأيته وما سمعته، مَن أنتِ لتقولي ماذا كان سيفعل العم نعيم؟ من أنتِ لتكوني المتحدثة الرسمية عن رد فعله. مهما عرفنا الرجل فنحن في أغلب الأوقات جلسنا نسمعه يتحدث لنا عنا، لا نعرف شيئًا أكثر من ذلك. اِستفزتني ثقتها، ورأيتها كاذبة تبدد لا تجمع. تتطرف لا تتحدث بعقلانية.

فجلست على مكتبي وكتبت مقالًا طويلًا أَتكلم فيه عن نهى، وسبب غضبها وسبب تطرفها الشديد في فهم كلام العم نعيم بهذه الطريقة. هي صبغت فلسفة الرجل عن الحياة والحب بصبغة كبرياء لا أعرف من أين أتت بها. قلت للناس أن يقرأوا الكتب التي كتبها الرجل بنفسه أو الأحاديث والمواقف التي عاشها مختلف الناس معه. وألا يأخذوا كل ما يقدم على قناة الطريق للنعيم دون مراجعة، ففي النهاية هم بشر ويصبغون كل شيء بوجهات نظرهم الشخصية.

صدقوني هذه أكثر صيغة عقلانية توصلت لها بعد مراجعات كثيرة مع سما. كانت تعلم أن هذا الأمر لن يمر مرور الكرام لكنها أيضًا مقتنعة بالنشر والرد، فحاولنا أن نظهر احترامًا لتعاليم العم نعيم واسمه ونحن نراجع المقال ونحذف أجزاء هائلة منه. وتوصلنا في النهاية إلى صيغة أن نهى وأصحاب القناة أناس طبيعيون، بشر، وبالتأكيد يضعون لمساتهم الشخصية على ما تعلموه، وأن الحيادية هى وهم ليس له أساس من الصحة. ويا عزيزي الجمهور أنت مسؤول عن نفسك فأرجوك راجع ما تسمعه قبل أن تقبله، كما أنه توجد مصادر كتبها الرجل بخط يده. نشرنا المقال ومعه أول صورة مرسومة للعم نعيم، البورتريه الذى رسمته لي سما.

نسيت أن أقول لكم، لقد صورت الكشكول الذى أعطاني إياه هاني ونشرته مجانًا على الإنترنت. الكلام نفسه الذي نشره محمود وشكري سابقًا لكن هذه المرة بخط يد العم نعيم مما أغضبهما أيضًا. المبيعات الآن صارت أهم من عطاء كل ما نعرفه عن الرجل.

المقال ومشكلة الكتاب جعلتهم يظنون أننى أشن الحرب عليهم، وأنا لا أشن حربًا أو أى شيء، أنا مُنشغِل بالناس الذين يشاهدون القناة وأريد نصحهم نصيحة عادية، ولكن دخول المال في الأمر بهذه الطريقة ووجود موظفين مشغولين بالحسابات والمبيعات والمشاهدات، سيجعلك دون أن تشعر تجد أهدافك تتغير، واهتمامك بالرسالة يأتي ويذهب، وتصبح عملية مراجعة النفس صعبة لأنك مشيت طريقًا طويلًا والعودة منه معناها الاعتراف بأنك مخطئ وأن كل هذا كان حَيَدانًا عن الطريق الصحيح. التوبة ليست بالأمر السهل.

رغم أن التوقف حكمة أكثر من الاستمرار عندما نكتشف أننا في الطريق الخاطئ، لكن من عنده هذه الشجاعة؟ في الحياة الحقيقية الاستمرار في الظهور بأنك المحق أغلى من العودة إلى الوراء...إلى الصفر.

إنها اللحظة التي تقرر فيها أن تضحي بنفسك مقابل صورتك التي يراها الناس، إنها المرة التي تفضل فيها الناس عن نفسك، دافنًا حقيقتك ومتمسكًا بشهرتك. الأمانة مع النفس أمر صعب.

حاولت الشرح لمحمود وهو تفّهم ولكنه أكد لي أن شكري ونهى غاضبان جدًا مما حدث، وأن الأمر ليس بسيطًا وقد أثر فيهما بقوة، وما فعلته أعطى للناس تشجيعًا للتطاول عليهم وللاتصال على البرنامج الخاص بنهى وسبها علنًا.

شجعت الناس على مراجعة النفس فاعتبروا ذلك دليلاً على أخطاء أصدقائي وسببًا كافيًا للهجوم عليهم بدلاً من أن يراجعوا ما يسمعوه. أيهما أسهل أن نظهر بمظهر أبطال يحاربون الفساد في العالم أم بشر عاديين نحاول محاربة الفساد الذي فينا؟ دعني أُعدل الصيغة، ليس أيهما أسهل، بل أيهما يقود أسرع لتقبلنا لأنفسنا ولشعورنا بالرضا؟

إنها الحبكة الثابتة في تخدير ضمائرنا وقتلها. نَم يا ضميري واسترِح، أنا

المحارب عن الحق، نَم ولا تزعجني، طالما أحارب عن الحق فأنا حق، ولا أحد غيري على حق.

بالطبع الغضب الذي ملأ نهى وشكري لم يظهر في البرنامج بل ظهرا هما الاثنين مرات عديدة يتحدثان عن تقبلهما لآرائي وأنهم يحترمون الغير، ولكن صداقتنا انتهت في ذلك اليوم، كما أخبرا محمودًا ألا يتواصل معى مجددًا.

أنا لست بريئًا. لم أتوقع كل هذا أن يحدث وقد حركني فعلا خوف صادق على المستمعين. ولكننا وصلنا للقطيعة، واستمرت القناة كما كانت وأنا أخذت على نفسي عهدًا ألا أحاربهم علنًا ثانية، لأنه يبدو أن حُسن النية في هذه اللعبة لا يفيد أحدًا.

(11)

تعرفت منذ سنين عدة على شاهندة، طبيبة تعمل في القصر العيني وقد التَقَت مرات كثيرة أيضًا بالعم نعيم.

شاهندة كانت متطوعة في قوافل خيرية تجوب مصر كلها يبحثون فيها عن المحتاجين ويحددون احتياجاتهم ثم يعودون إلى القاهرة لرجال الأعمال لتشجيعهم على التبرع لهذه الاحتياجات ويعودون للمحتاجين بالخير. كانت شاهندة تفعل كل هذا في وقت إجازاتها القصيرة جدًا من عملها وكان دائمًا لها مقولة جميلة «إن لم نستثمر سنوات شبابنا في الخير ستضيع هباءً"، لم يكن بوسعي سوى أن أُعجب بهذه الطاقة والتفاني، فقد فسرت شاهندة كل كلام العم نعيم فى هذه الجمعية الصغيرة المهتمة بالآخرين.

اتصلت بى البارحة لأنها تذكرتني لسبب ما وسألتني إن كنا وجدنا العم نعيم أم ما زلنا نبحث عنه وحكيت معها عن كل المستجدات وأصرت أن تقابلني لترى الكشكول الأصلي وبالطبع وافقت.

سألتها عن جمعيتها الصغيرة فأخبرتنى عن آخر إنجازاتهم وما يفعلون وشعرت بشيء مختلف، شعرت أنها دون كلام كثير، ودون أجندة وتمثيل، ودون شرح وتفنيد وصراعات ومجادلات، تُفعّل كل ما قاله العم نعيم بكل هدوء واجتهاد، في حياتها وحياة الآخرين.

بعد أن أظهرت إعجابي بما تفعل وما تحقق هي وفريقها، عرضت شاهندة عليّ أن أنضم إليهم. قالت لي إنهم في حاجة إلى صحفي يوثق ما يفعلون، فهذا قد يشجع العامة في التطوع والتبرع بالمال، فوافقت على الفور دون الكثير من التفكير.

وبدأت سلسلة من رحلات لا أستطيع أن أصف جمالها. الناس الفقراء هم الصورة الأصلية للإنسان الذي لم تسرقه المظاهرالخداعة ولم تلوثه الرأسمالية، ولكنهم أيضًا أكثر من دهستهم الرأسمالية بكل قوتها. هم لا يستحقون ما يعيشون فيه، هم يستحقون حياة أفضل بكثير من هذه، فيها رعاية طبية أفضل وضمان أكبر لحياة جيدة، هم حقًا محظوظون بهذه الجمعية وبكل الجمعيات الأخرى التى تحاول مساعدتهم بحق.

كنت أشعر أنني شخص خفيف، أتحرك وقلبي على يديَّ يراه الجميع، لا أنتظرهم ليحكوا لي مشكلاتهم لأخترع طريقة لأحكي لهم عن العم نعيم وأعود إلى منزلي أشعر أني فعلت كل ما أستطيع وهم لا تزال لديهم احتياجات أخرى.

المفاجأة أيضًا أنى في هذه الرحلات أنا وشاهندة والفريق كله تحدثنا كثيرًا عن العم نعيم بسبب أسئلة الناس عندما تعاملوا معنا. أحبوه من حُبنا له، وصدقوه من صدق أفعالنا، ورأوه في التضحيات التي نقدمها لهم. كانت هذه أوقات ثمينة جدًا في حياتنا.

اتصلت إحدى القنوات التي أرادت تشجيع شاهندة على ما تفعله وطلبت منها أن تظهر معهم لكى تتحدث عن ما يحدث داخل الجمعية وما الذي نحتاج إليه.

فى أحد الأيام بعد عودتنا إلى القاهرة ونحن منهكون من السفر، عرضت عليّ شاهندة أن نذهب إلى وسط البلد وأن نشرب القهوة معًا لأنها تريد أن تتحدث معي في موضوع مهم. حكت لي عن البرنامج الذي

تواصل معها وقالت لي: "خجلى من الظهور على شاشات التلفاز عطّل هذه الجمعية كثيرًا، أنا لا أحب الظهور يا صديقي وأنت تعرف لماذا".

كان لدى شاهندة مشكلة بسيطة في نطق بعض الحروف والكلمات. ولكني قلت لها: "خجلك من الكلام جعلك إنسانة ترى أن الأفعال وقعها أجمل على الناس، وقعها أفضل على الحياة وذات تأثير أصدق. يجب أن تظهري وألا تستسلمي لمخاوفك".

فأجابت شاهندة: "لا أخشى الظهور يا صديقي، بل صرت الآن لا أريده ولا أستحسنه، وللأمانة لا أعتقد أني مضطرة لأن أفعله لأن هناك من يمكن أن يفعله مكاني".

هي لحظات جميلة عندما يقرر صغر نفسك أو تواضعك أن يظهر على أنه غباء، "ومن هذا الشخص يا ترى؟"

ضحكت شاهندة: "أحقًا لا تعرف من هو؟ هو الشخص الذي صاحبنا في جميع رحلاتنا السابقة ووثق كل ما رآه وهو الشخص الذي غالبًا بسبب مقاله الأخير اتصلت بنا القناة، أنت من سيظهر معهم في البرنامج".

رفضت تلقائيًا ما قالته وحاولت إقناعها بأن ظهورها هي سيكون أفضل ولكن بلا جدوى. رغم أن شاهندة ليست أفضل من ينطق بالكلمات لكنها أفضل من يستخدمها وتستطيع أن تقنعك بأي شيء كان. وطبعًا اقتنعت واستعددت لأظهر وأتحدث وأخذت معي اثنين من الشباب الصغار من الجمعية لأشجع من في نفس سنهم على التطوع.

البرنامج كان مفيدًا ومجرد ظهورنا في الحلقة وفر لنا مبلغًا ماليًا كبيرًا، كما تبرع على الهواء مباشرة اثنان من رجال الأعمال. عدنا فى ذلك اليوم والأحلام تملأ خيالنا، والآمال نراها واقعًا بسبب حصولنا على كل هذا المال.

ظهوري في ذلك البرنامج لم يكن الأخير بل صار شيئًا عاديًا يحدث مرة كل شهر على الأقل. وبعد كل لقاء صار من الروتيني أن يحدثني هاني ابن العم نعيم، كنا نتحدث كثيرًا ليعلق على كلامي وتصريحاتي في البرنامج، وصرت سعيدًا بهذه اللقاءات فى الحقيقة وكنت أشعر أني أسير فى الطريق السليم، هذا مكان ودور تتحقق فيه سعادتي العميقة باحتياج حقيقي في العالم.

كلمتني شاهندة اليوم وهي مُتفاجئة ولا تستطيع أن تفهم، بدأت تهدأ وقالت لي أن هناك قناة ومذيعة نعرف عنهم أنهم هُواة مشاكِل و"بروباجاندا"، كلمتنا وأرادت منها ومني الظهور فى البرنامج، وضيوف الحلقة الآخران هما نهى وشكري.

قلت لها: "لا داعي للقلق، ارفضي الأمر".

فأخبرتنى أن القناة عرضت أن تتكفل بدخول الماء لقرية وهو مشروع كان سيحتاج إلى ما يقرب من السنة لجمع التبرعات له. فرجال الأعمال الذين يساعدوننا يَمِلُّون التبرع فى أوقات كثيرة ويرون أن ذلك ليس دورهم وحدهم بل دور الدولة أيضًا. هم محقون بالطبع، لذلك كما نعتمد عليهم نعتمد أيضًا على تبرعات العامة، ولكن العمل لمدة سنة كاملة من جمع التبرعات يمكن أن ينتهي بمجرد الظهور في هذا البرنامج وحضور هذا اللقاء.

«تأكدى أولاً من المُعدين أن شكرى ونهى وافقا بالفعل على الظهورأمامنا فى البرنامج». فقالت لي إنهم وافقا.

أنا لا أريد هذا اللقاء ولا أريد هذه المواجهة ولا أعرف سببها وسبب دعوة القناة لنا.

"كيف ستظهرين يا شاهندة؟ ألم تقولي أنك تفضلين عدم الظهور في البرامج؟"

”عرضهم مُغرٍ يا صديقي...إنها فرصة جيدة لأهل القرية. سأتأكد قبل الحلقة ما إذا كانوا دفعوا الأموال لشركة المياه أم لا، وإلا لن نظهر معهم“.

كلام منطقي، لكني مع ذلك خائف جدًا من هذا اللقاء.

(١٢)

ترجتني سما قبل نزولي أن أكون حذرًا في كلامي وأن أطلب من شكري ونهى تصفية مشاكلنا بعيدًا عن الإعلام. قالت لي: "لا تعطِ للناس مادة تجعلهم يشاهدونكم كما يشاهد البرازيليون الديوك المنتشية تتعارك".

وصلنا الستوديو أنا وشاهندة، وكان شكري ونهى هناك قبلنا، لا أعرف لماذا ولكن لا يهم. توقفت ليساعدنا المساعد على وضع المايكروفون ولكن شاهندة تركتنا وذهبت للتحدث مع المذيعة أولاً. تأكدت شاهندة أن اتفاقهم سارٍ وأن عملية إدخال الماء إلى القرية صار أمرًا حتميًا ثم عادت لنا.

قالت شاهندة بصوت منخفض: "هذه الحلقة فخ يا صديقي مثلما قلت، الذي تم دفعه لنتواجد هنا أمام شُكري ونُهى ليس قليلاً، نريد أن نكون أذكى منهما، هذه القرية ليست آخر مكان يحتاج إلينا، يجب أن نحافظ على صورتنا وكذلك على صورة الجمعية".

أومأت برأسي لشاهندة، كل كلامها صحيح.

دخلت صافحت المذيعة ثم مددت يدي لشكري ونهى، صافحنى شكري أولاً وسألني عن أحوالي وعن سما مما طمأنني....يبدو أننا ما زلنا أصدقاء رغم السنين ورغم كل ما حدث، لطالما كنت إنسانا محترمًا وعاقلاً يا شكري.

جعل شكري نهى تنظر لى، وقال لها: "هو صديقنا في النهاية يا نهى". فردت نهى: "لقد شتمتني في مقالك".

"أنا آسف يا نهى، ولكن أرجوكِ التلفاز ليس المكان المناسب لتصفية الحسابات، لا نريد أن نكون أضحوكة، نحن في البداية أصحاب رسالة".

هذه الجملة جعلت نهى ترمقنى بنظرة معناها "ماذا يختلف التلفاز عن الصحيفة؟"

عدت لشاهندة. أخرجت المذيعة من حقيبتها كل الكتب التي نُشرت: كتاب الدليل للنعيم، وكتاب سما، وكتابي الذي جمعت فيه أحاديث العم نعيم مع ناس مختلفين ووضعتهم على الطاولة. صار الآن واضحًا ما هو موضوع الحلقة، إنه العم نعيم.

قام شكري مسرعًا ليقول لي في أذني: "نحن لا نعرف أين العم نعيم بعد يا صديقي، لا داعي لذكر موته، لا داعي لتعطيل أعمالنا، أنت تعرف أن القناة تعمل لأن الناس ما زالت تنتظر عودة عم نعيم وهم يريدون مقابلته ورؤيته، معرفة خبر موته هو تعطيل للرسالة وتعطيل للقناة، وخسارة لن أقدر على تحملها ماديًا! دعنا نركز على الإشارة إلى الإيجابيات اليوم ونعود لمكتبي بعد اللقاء نشرب القهوة ونتحدث، اتفقنا؟"

"اتفقنا."

بدأت المذيعة تقول مقدمتها وأنا أفكر في كلام شكري، أنا دائمًا في صف أن يعرف الناس كل شيء، من أنا لُأخفى عليهم جزءًا من الحقيقة؟ من أنا لأحدد ما يعرفونه وما لا يعرفونه؟ أنا أعتبر هذا نوعًا من الخداع وشكري يعتبره الخير الأعظم. ولكن هل هناك أي إنسان على وجه الأرض يعرف حقًا ما هو في مصلحة إنسان أخر؟

خبطتني شاهندة عندما لاحظت سرحاني: "ركز!" فركزت.

"أهلاً بكم، هل تريدون أن تقولوا أي تعليق عن مقدمتي عنكم؟"

رد شكري: "لا، شكرًا، لقد قلتِ كلامًا كريمًا جدًا في حقنا..."

قالت المذيعة: "لن ألف وأدور، بل سأدخل في صميم موضوع الحلقة بسؤال واضح وسهل وبسيط...أين العم نعيم؟"

لقد قيل لنا أن مذيعة البرنامج قرأت كتبنا وهي مقتنعة أشد الاقتناع بالرسالة التي تحويها الكتب وتريد أن تصنع حلقة تناقش فيها محتويات هذه الكتب حتى تصل الرسالة لأكبر عدد ممكن، لعبت معنا بأحلامنا. أشارت إلى غبائنا بجزرة، وركضنا خلفها. هي عرفت كيف تأتي بكل واحد منا، والآن نحن على الهواء مباشرة والاختيارات المتاحة قليلة.

علقت المذيعة: "لماذا تصمتون، ألا تعرفون؟ تجوبون القاهرة تتكلمون عن شخص اختلقتموه؟"

فقالت شاهندة مسرعة: "لم نختلق أحدًا، العم نعيم هو شيخ حكيم قابلناه في مواقف مختلفة في حياتنا، وكان دائمًا عنده حكمة شديدة، ليست الحكمة التي تبهرك فقط بل حكمة تغير حياتك، تجعلك تصدقين أن هذا الرجل ليس شخصًا عاديًا، أنا أجوب القاهرة وأتحدث عنه لأنه شجعني وغير حياتي".

وقالت نهى: "أنا أيضًا عندما تعرفت عليه كنت فتاة كتومة، صامتة أغلب الوقت، دائمًا خائفة من نظرات الناس، خائفة من كلامهم ومن معانيه، كنت عدوانية جدًا وحذرة جدًا، ولكن من أول جلسة مع العم نعيم ساعدني أن أنظر إلى نفسي بشكل مختلف، أنظر لنقاط قوتي وأكتشفها، أنا مدينة له بكل شيء".

كنت سعيدًا جدًا، لم أسمع نهى تتكلم بهذا الهدوء والامتنان من وقت طويل.

قال شكري: "تستطيعين أن تختلقي فتى أحلام وهميًا يقول لك ما تحبين أن تسمعيه، أن تختلقي بخيالك أبًا أو أمًا يقولان لكي ما تتمنينه، ولكن أن تختلقي رجلاً حكيمًا يواجهك بعيوبك ثم يساعدك في التعامل معها، هذه فكرة لا أتصور إمكانية حدوثها".

قلت للمذيعة: " أتفق مع أخي الدكتور شكري في كل ما قاله".

فقالت المذيعة: "أعرف أنكم كنتم أصدقاء واتفقتم على العمل معًا ليعرف العالم العم نعيم ولكنكم اختلفتم في منتصف الطريق، ما الذي حدث؟"

أجبتها: "نحن أصدقاء عُمر، هذا شيء لن يتغير، والاختلاف كان في طريقة توصيل الرسالة وليس في مضمونها".

كان شكري ينظر إلي بحدة، هل أخطأت في شيء؟!!

فردت المذيعة: "إذا أنت لا توافق على طريقتهم في توصيل الرسالة".

تدخل شكري محاولاً تدارك الموضوع: "لا يقصد صديقي الاختلاف الذي فهمتيه، كان اختلافًا في التوقيت، لا أكثر ولا أقل، نحن بدأنا القناة فى الوقت الذى كانت زوجته الجميلة سما رسامة كتاب الأطفال الذي معك، حاملاً في مولودها الثالث ولم يستطيعا أن يكونا معنا، فقط لا غير".

اِبتسمت المذيعة لشكري، هي تعرف أنه يكذب: "ما زلنا في أول الحوار عن رجل لا نعرف أين هو، ولكن يدَّعي البعض أنهم رأوه، فهل هو حقيقة أم وهم؟ سنعرف ذلك بعد الفاصل".

(١٣)

مر وقت طويل لا أعرف فيه شيئًا عن محمود وكنت أفتقده كثيرًا. كنت أتصفح الفيسبوك، ورأيت صورنا في أيام الصعلكة وضحكت كثيرًا. قد كان محمود شديد النحافة لدرجة أنه مهما ارتدى من ملابس أنيقة يبدو في النهاية كخيال مآتة ولكن ليس كخيال مآتة مرعب بل كوميدي.

اتصلت به والحمد لله كان متاحًا، فذهبت للقائه فى القهوة القديمة التي طالما جلسنا فيها وتحدثنا عن ملكة الجمال التي صارت زوجتي، أعبائي وأعباء الأطفال جعلوا من سما شخصًا أخر، سامحيني يا سما، سأشتري لكِ قرع العسل الذي تحبينه فى طريقي إلى المنزل.

حدثني محمود عن العمل، عن سيارته الجديدة، عن آخر برنامج يجهزه للقناة، عن تأملاته في كتاب العم نعيم، ولا أعرف لماذا رغم كل ما قاله شعرت أنه تمهيد ومقدمة لموضوع أهم وأكبر، ما زال محمود يحب الإثارة.

"محمود، هناك لمعة في عينيك، وسعادة غريبة في صوتك، ما الأمر؟"

لأسباب أسرية كثيرة لم يتزوج محمود إلى الآن، وكانت كل علاقاته النسائية صداقة وأخوة. كان هناك شيء فيه يجعل الفتيات مهما اقتربن منه تصلن إلى خط الفاصل بين الصداقة والعشق وتقررن ألا تخطوا خطوة إضافية.

في سنوات الجامعة وطيلة مرحلة العشرينيات حيّره الأمر وأحزنه، ولكن بعد ذلك تبدلت مشاعره تلك إلى مشاعر امتنان لوجود أناس يثقون به وبرأيه حتى لو كانت كل علاقاته في قمة حميميتها هى علاقات حب أفلاطونية. لكن محمود بسيط ويرضى بالقليل.

رد محمود: "مفاجأة، لقد وقعت في الحُب. لقد قرأت الكثير من المقالات العلمية عن إمكانية الوقوع في الحُب من أول نظرة حتى أصدق ما حدث معي..."

"كيف وأين تعرفت عليها يا محمود؟"

"ذهبت لأسهر بعد أسبوع عمل شاق في ملهى ليلي يطل على النيل من أعلى، يرى القاهرة كلها، فى ذلك اليوم شربت كأسين وكنت أستعد لليلة أنسى فيها اسمي. جاءت وجلست بجانبي، امرأة جميلة جدًا، نظرت إليها، فستانها يتكون من لونيّ المفضلين؛ الأحمر والأسود، شعرها يتطاير من شدة الهواء، تضع نظارة تقول إنها قارئة نهمة، وخلف نظارتها عينان تقدران أن تسحرا أعظم الملوك الذين رأوا أعدادًا مهولة من النساء، كانوا سيرون في عينيها شيئا استثنائيًا...عينيها، أنا أنظر لعينيها، أنا أحدق لخمس دقائق في وجه امرأة لا أعرفها، لاحظت نفسى...فنظرت بعيدًا في ثوان. ابتعدت هى عني، معها حق. لا يوجد ما هو أسوأ. قررت أن أتجاهلها وأن أذهب للاعتذار قبل أن أترك المكان في آخر الليل.

"وان فودكا مارتيني" صرخ البارتندر.

عادت للبار وسألته: "إكسترا ديرتي؟"

أومأ برأسه.

لا أريد أن أحاول أن أتحدث معها، لكنها طلبت نفس مشروبي بالضبط،

لا أعـرف هـل هـذه صدفـة سـعيدة أفسـدتها بغرابتـي، أم أنهـا فرصـة سـعيدة مـا زال يمكـن اسـتغلالها...

قمت وتوجهت نحوها: "مساء الخير، أنا محمود، المتحدث الرسمي..."

قالت: "قد لاحظتك، وكنت أريد التحدث معك لكن كنت محرجة..."

"أنـتِ المحرجـة ؟! أنـا جئـت هنـا لأعتـذر لـكِ لأننـي دون أن أقصـد سـرحت فـي وجهـك، وجعلتـك تشـعرين بعـدم الراحـة..."

"شعورنا واحد حتى وإن كان حرَجًا".

فقلت لها ضاحكًا: "أسوأ طريقة أتعرف بها على شخص".

كنـت بـدأت أشـعر أنـه يجـب علـيّ أن أتركهـا، أوعلـى الأقـل أن أعـرض عليهـا ذلـك حتـى لا أشـعر أننـى أسـتمر فـى الجلـوس معهـا رغمًـا عنهـا.

قاطعـت حبـل أفـكاري: "أسـتاذ محمـود، لقـد كان أسـبوعًا عمليًّـا شـاقًّا جـدًا...»

أعـرف كل حـرف سـيُقال الآن، وأتوقـع صـداه علـى نفسـي، ورغـم أنـه قيـل لـي كثيـرًا إلا أنـه مـازال يؤلمنـي أننـي لسـت شـخصًا يـراه أحـد ويقـرر أن يمضـي معـه الوقـت بعـد يـوم شـاق...

فقلت مسرعًا: "تريدين أن تجلسي وحدكِ، سأقوم حالًا..."

فقاطعتني: "لا..أكثـر شـيء لا أريـده اليـوم هـو أن أكـون وحيـدة، ولكـن هـذا المـكان مزدحـم ومزعـج، أفكـر أن أذهـب لأتمشـى علـى النيـل، وربمـا أبـكي قليـلاً أيضًـا أمامـه كمـا اعتـدت، هـل تقبـل أن ترافقنـي؟ اليـوم فقـط؟"

مـا هـذا، هـل أنـا مسـحور؟ اليـوم فقـط؟ لا العمـر كلـه!! ولكـن مازحتهـا قائـلاً: "طلـب غريـب فـي الحقيقـة، خاصـة وأنـا لا أعـرف اسـمك بعـد".

فقالت لي: "اسمي رانيا".

تمشينا على النيل، وحكت لي الكثير عن نفسها، وبكت فعلاً وهي ترى أحد المراكب وتتذكر والديها. سألتني إن كنت أوافق أن تمسك يدي، ووافقت، فرَفَعَت يديَّ وقبلتهما وقالت لي إنني ملاك أرسله الله لها اليوم، كانت ستنتحر لولا أنها شعرت بالراحة تجاهي في الفندق.

ثم سألتني: "هل عندك مانع أن نذهب إلى شقتي، سأعد لك كوب قهوة لتحكي لي حكايتك، لا أريد أن أشعر أني قد أثقلت عليك..."

وهي لم تثقل علىّ بالمرة بل جعلتني خفيفًا، أومن بالمجرات البعيدة وأومن بالسحر، أومن بالله أكثر من الأول...وأومن بالحب...تبًا للحب، عندما يأتي ويشعرنا بالكمال ولو للحظات قليلة.

ذهبت معها إلى منزلها، لم نفعل شيئًا سيئًا بالمرة بل تحدثنا الليل كله، لقد سمعتني جيدًا، عيناها لم تترك عينيَّ لحظة، تعاطفت مع كل قصة مأساوية قلتها، وضحكت على كل موقف سخيف حكيته، وأبدت إعجابها بأي موقف بطولي اختلقته. حكيت لها عن بيتي وعن أسرتي، حكيت لها عنك وعن سما وكيف أنك لم تتخيل يوما أن تحبها. حكيت لها عن شكري ونهى وكيف كانا يغضباننا عندما يتفقان في أي جلسة من جلسات اجتماعنا. حكيت لها عن المكنة البوكسر القديمة خاصتي. وحكيت لها عن العم نعيم، كيف غيّر حياتنا، كيف اختلفنا في وصفه، كل ما وصلنا إليه من لحظة تعَرُفنا عليه، وكيف أنه مات دون أن يتواصل مع أحد منا.

تحدثنا حتى الفجر وسمعتني وكلها حنان، هل يمكن أن تختلق امرأة الحنان؟ كأن "كتالوجًا" عني يسكن داخلها، كانت مفاتيحي كلها في يدها، نمتُ على الأريكة دون أن أشعر بنفسي، لم أشعر براحة مثل التي شعرت بها ذلك اليوم.

لن أهرب من التعب بشرب الكحول ثانية، بل سأسكَر بالحب من الآن فصاعدًا.

تناولنا الفطور سويًا في الصباح واعتذرت لي لأنها تحتاج إلى أن تذهب لإنجاز بعض المشاوير، فنزلنا واتفقنا أن نتكلم ونتقابل من جديد.

كنت سعيدًا جدًا لمحمود، لم أره سعيدًا هكذا منذ فترة طويلة، كان هذا قبل اللقاء التلفزيوني بحوالي شهر.

قصة محمود للأسف لم تستمر سعيدة، اختفت رانيا وتهربت منه بعد تلك الليلة. ولم يلاحقها محمود كثيرًا، لم يكن هناك في قلبه ما يكفي ليتحمل صدمة أخرى، فتجاهل تجاهلها ومع ذلك استمر في التردد على الفندق والكورنيش الذي تمشَّيا عليه في تلك الليلة. لم يسأل محمود عنها أحدًا، ألمه كان أكبر من حيرته. شرب محمود كثيرًا قدر استطاعته ليملأ تلك الفجوة التي خلقتها رانيا بداخله، ولم يقدر أن يملأها رغم كل ما فعل.

كانت القصة أكثر جمالًا من أن تكون حقيقة.

(١٤)

عُدنا من الفاصل أعزائي المشاهدين ومعنا...

اِهتز هاتفى في جيبي، أخرجته ورمقته خُلسة لأعرف من المُرسل..قد كانت رسالة وصلتني من محمود...

قالت المذيعة: "لقد قرأت كل الكتب التي نشرتموها، أنا أستعد لهذا اللقاء منذ شهر كامل، وكل ما وجدته بها هو مجرد فلسفات جيدة، مفيدة لا أُنكر، ولكنها لا تجعل من العم نعيم هذا رجلاً استثنائيًا بهذا القدر".

أجابت شاهندة: "استثنائيته ليست في عظمة أفكاره أو عمق كلامه فقط، بل في مقابلاتنا الشخصية معه...لن تتخيلي يا أُستاذة رانيا كم كان مجلسه رحبًا وكم كانت الدقائق معه توفرعليك سنوات".

فقاطعتها المذيعة: "أتفق معك يا شاهندة، قد تكون مقابلته هى سر تميزه...ولكن أين هو الآن؟"

قال شكري حامي حماة القضية: "في الحقيقة نحن لا نعرف، لقد اختفى منذ ما يقرب من خمسة عشر عامًا ولا نعرف أين ذهب...ولكننا ما زلنا نبحث عنه ..ونحن متأكدون أنه سيعود، لقد أحب العم نعيم الناس، سيعود لهم بالتأكيد يوما ما".

"لا أصدقك يا د.شكري مع كامل الاحترام لك، العم نعيم مات!"

ومعنا اتصال على الهواء، ألو..هاني نعيم أعزائي المشاهدين معنا على الهاتف، ابن الرجل الأسطوري العم نعيم الذي كتب عنه ضيوفي كثيرًا..

تحدث هاني مع المذيعة وقال إن أباه طالما أحب الناس وأثر في حياتهم وأكد على موته وأكد أنه ممتن لنا على المجهود الذي بذلناه لتأكيد عظمة والده.

كل هذا لم يفرق مع المذيعة، كانت هنا لتقدمنا كقرابين على مذبح المشاهَدات و"الترينـد"، لقد دبرت جيدًا خطة محكمة لتهد كل ما بنيناه...

" لماذا تكذبون على من صدقكم، تقولون لهم أنصاف الحقائق؟»

نهى هنا اشتعلت: "نحن لا نكذب يا أستاذة بل لم نرد أن نشتت الناس، موت العم نعيم لا يهم..."

مشكلة الغضب الأزلية عندما يقود كلماتك، أنها لا تمر على فلاتر المنطق... يُظهر الغضب لك وحدك أنه يقودك نحو استرجاع حقك ولكنه في الحقيقة يلقيك في البحر، ويجعلك تقول كل ما ستندم عليه لاحقًا، مثلما يفعل الآن بالصوت والصورة على مرأى ومسمع من الجميع بنهى.

ردت المذيعة: "موته لا يهم؟ الرجل الذي تبيعون الكتب باسمه، تنشئون قناة باسمه، تنشرون المقالات عنه؟ تؤسسون جمعية خيرية بسبب مقابلته معكم، موته ليس مهمًا؟ إذا ما الذي يهم؟»

ثم ألقت بالقذيفة الأقوى: "كان معك حق بابتعادك عنهما، بالتأكيد أنت لم توافق على قرارهما بعدم نشر خبر موته".

قال شكري: "إذن هذه هي الحكاية، اتفقتم معا لتجعلونا نبدو مجنونين

للعامة، أحسنت يا صديقي!"

"كان يجب أن يعرف الناس الحقيقة يوما ما يا شكري، اهدأ." كنت أريده أن يعود إلى رشده ويتذكر أننا فريق واحد...

"أهدأ؟ أنا هادئ...الحقيقة الكاملة أنه هو من عرفنا على العم نعيم ويعتقد أن العم نعيم حق حصري له".

ردت المذيعة في ثوانٍ كأنها تقرأ من سيناريو مكتوب من قبل الحلقة: "لذلك نشر وحده النسخة الأصلية لمذكرات العم نعيم دون الرجوع إليكما؟...بعد إذنك يا أستاذة شاهندة كرري لي جوهر أحاديث العم نعيم؟»

فقالت شاهندة: "أن...نُحب...الناس...وأن نحب...أنفسنا..."

"يبدو أنكم أفضل من يقدم هذه الرسالة بحق!»

نظر لي شكري بعينين قائلتين: لقد ضحيت بنا أولاً مقابل المال.

قال شكري: " نعم بالضبط يا أستاذة رانيا، تركنا صديقي بسبب الأنانية."

"ما زالت الحلقة في بدايتها، سنذهب لفاصل إعلاني من برنامجكم الصورة الكاملة مع رانيا النشار، انتظرونا."

وقف شكرى ونهى بعيدًا عنا ليتحدثا. المذيعة تصلح مكياجها وشاهندة بجانبي تسألني كيف سنتصرف، وأنا كل ما أفكر فيه «أنا أعرف هذا الاسم!"

لقد ذهب محمود لرانيا المكان الذي تسكن فيه ليتأكد أنه لم يكن سكرانًا يحلم.

وسأل حارس العقار من صاحب الشقة التي في الدور الثالث، فأجابه

"الأستاذة فريدة النشار» لم يكن محمود يحلم..ولكنه كان واقعًا في فخ.. رانيا هي أخت فريدة النشار..لقد راقبت رانيا محمود قبل لقائه وعرفت الكثير عنه...أعدت له فخًا محكمًا بشدة مصنوعًا له على مقاسه...رانيا الآن معها كل ما يحلم به أي مُعد برامج لقيادة هذه الحلقة..إن أرواحنا في يديها.

فتحت رسالة محمود دون أن أحتاج إلى أن أعرف محتواها «رانيا النشار هي الفتاة التي قابلتها تلك الليلة..كيف لم ألاحظ؟"

لأكون واضحًا، أنا لا أدين محمود..هي من أوقعت به في الفخ وهي المخطئة الوحيدة في القصة..هي ومن جعلونا لا نقول الحقيقة كاملة من البداية ليخلقوا أسطورة تأتي بالجماهير ولكنها أيضًا تنخر في مصداقيتنا..ها نحن نخسر كل شيء بل وأيضًا يرمي أحدنا الآخر تحت القضبان..كل منا يرى الثاني يهوذا الذي باع المسيح.. كيف وصلنا إلى هذه النقطة؟

عادت شاهندة من عند المذيعة وقالت لى أن المذيعة لعبت الكارت الذي كانت تخشاه شاهندة. فقد قالت لها: "لقد دفعت ما طلبتموه، ليس من حقكم أن تتدخلوا في خط سير الحلقة".

"لماذا لا نترك الحلقة؟" سألتني شاهندة.

ترك الحلقة الآن هو أحد أكبر أحلام رانيا النشار، لتؤكد أننا خسرنا أمامها، والأزمة أن استمرارنا أيضا سيكون له خسائر، هي الفائزة الوحيدة اليوم في كل الأحوال.

صرخ المخرج المساعد: "سنعود على الهواء في ثلاث ثوانٍ...ثلاثة... اثنان..واحد! أون آير!

أكملت المذيعة الحلقة؛ بعد موت العم نعيم، فتحت حادثة اختلاط

أوصافـه يـوم اختفائـه...

شـكري أيضًـا، لَمَـحَ إلـى أنني كنـت فـي هـذه المجموعـة فقـط لأنـه المـكان الوحيـد الـذي يمكـن أن أقابـل فيـه سـما، ولذلـك قـل نشـاطي واختفـى بعـد الـزواج والإنجـاب. كانـت تُوجّـهُ إليَّ الاتهامـات فأدافـع عـن نفسـي حينـاً وأتذكـر هـدف المذيعـة حينـاً آخـر فأصمـت. وعلقـت نهـى علـى مقالـي الـذي أغضبهـا منـذ سـنوات...وقالـت إننـي نرجسـي ومتعصـب لوجهـة نظـري ممـا جعلنـي أضطـر أن أتكلـم عـن تصريحاتهـا المتطرفـة عـن الفـن وعـن السـيطرة علـى الناس...كانـت ليلـة مأسـاوية بـكل مـا تحمـل كلمـة مأسـاة مـن معنـى.

خرجنـا مـن هـذه المقابلـة التلفزيونيـة واحتماليـة أن نُسـلم بعضنـا علـى البعـض ثانيـة مسـتحيلة..كيف سـنغفر كل مـا قيـل؟

حـاول شـكري بـكل قـواه فصـل نفسـه وكيانـه عنـي، وهـو يفعـل ذلـك لـم يلاحـظ أن اختلافنـا هـذا يضعفنـا جميعًـا، يدمرنـا جميعًـا، يصيـب رسـالة العـم نعيـم فـي مقتـل.

خرجنـا مـن هـذا اللقـاء وقـد دُمـر صديقنـا محمـود لأنـه شـعر أنـه باعنـا بسـبب احتياجـه الدفيـن، وأغضبـت سـما كثيـرًا اتهامـات شـكري ونهـى ورفضـت أن نتواصـل معهمـا ثانيـة.

والأهـم والأصعـب أن قـوة رسـالتنا أُضعفـت، سـنحيا نتحـدث عـن رجـل علمنـا المحبـة ونحـن أصحـاب الرسـالة فعلنـا عكسـها.

يـوم تاريخـي، وحـرب لـم تنتـهِ يومهـا بـل كانـت فقـط تبـدأ. منـذ ذلـك اليـوم نجـد أنـا وشـاهندة مـن حيـن لآخـر أناسًـا يتحدثـون عـن نهـى وشـكرى قائليـن أنهـم سـلبيُّون ومتطرفـون، فنحـاول أن نشـرح لهـم أنهمـا ليسـا بهـذا السـوء بـل هنـاك كواليـس كثيـرة غائبـة عـن المشـهد...ومن حيـن لآخـر يظهـر مذيـع مُتعصـب علـى قناتهـم يشـن حملـة علينـا ويقـول أننـا نتظاهـر بالطيبـة والاهتمـام بالنـاس لنكسـب تعاطفهـم وهـذا أيضًـا ليـس حقيقـة...

تكـررت الجدالات...وتطـورت الاختلافات...وتشـوهت الحقائـق والكتابـات الأصليـة، ملأنـا الكـون ضجيجًـا وخلافـات وكنـا نعتقـد أننـا سـنملؤه سـلاما.

صـرت أقابـل محمـود كثيـرًا خوفـا عليـه مـن الانتحـار، وأشـجعه ليعـود للعمـل، ولكـن بـلا فائـدة.. إلـى الآن.

عـدت لُأركـز مـع شـاهندة فـي الجمعيـة بعـد أن رشـحنا شـابًا وفتـاة غيرنـا لتولـي مسـؤولية الظهـور الإعلامـي حتـى لا نخسـر تبرعـات النـاس بسـبب مـا حـدث فـى ذلـك اليـوم. صرنـا نُديـر الجمعيـة سـرًا لأن النـاس أصبحـت تنظـر لنـا كأننـا مجانيـن خلقـوا نبيًـا مـن الخيـال وداروا يبشـرون بـه.

مـن كان يصـدق أن نصـل إلـى مـا وصلنـا إليـه. كيـف للقائنـا برجـل شـجعنا علـى الحـب وعلـى الحيـاة أن ينتهـي بتشـهيرنا السـكاكين فـى أوجـه بعـض وأن يلقـي أحدنـا الآخـر فـي الجحيـم؟ كيـف حـدث كل هـذا؟

هـل كنـت تعلـم يـا عـم نعيـم أن رسـائلك الجميلـة سـنخلق بهـا جحيمًـا؟ أيـن أخطأنـا يـا عـم نعيـم؟ أيـن فقدنـا البوصلـة؟ أيـن فقدنـا الهـدف الـذي جمعنـا وأعطانـا المعنـى؟ أنا لا أعرف، ولا أدرى إن كنتم أنتم تعرفون!

* * *

شكر خاص

أقدم الشكر والعرفان لأصدقائي مينا مية، مودي ماهر وكريستين صموئيل على المجهود الذي بذلوه لإخراج الرواية بهذه الصورة المتميزة. اشكر أيضا صديقي وأستاذي د. ماجد صبحي زاخر على دعمه ومساعدته لي. كلمات الشكر لا تقدر ان توفيكم حقكم.

شكرا، وشكري لكم لا يوفيكم حقكم،
ريمون بحر ٢٠٢٠

ريمون بحر

أنا طبيب أسنان وكاتب. أثر فيا الفن وأحببته، وأتمنى لو أكون مؤثرا من خلاله. أكتب للمسرح منذ حوالي عشر سنوات وكتبت مسرحيات مثل (أحلام يقظة، الطوفان الثاني، مين سرق الساعة؟)، وأكتب في السنوات الثلاث الأخيرة أفلامًا قصيرة مثل (مش غلطتك!، إيدين، تدخلات الله) وحاليا أقدم لكم أول أعمالي الروائية.

أتمنى أن تشاركوني رأيكم ونقدكم وكل ما تريدون أن تشاركوني به من خلال هذه الصفحات..

Goodreads: https://www.goodreads.com/book/show/53911324

Facebook: https://www.facebook.com/RemonBahr

Email: remonbahr@gmail.com

رواية قصيرة

جحيم عم نعيم

ريمون